

تَفْسِيرُ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ

مِنْ

أَضْوَاءِ الْبَيِّنَاتِ

تأليف

الشيخ العلامة محمد الأمين بن محمد المختار
ابجيني الشنقيطي

إعداد

أ.د. سيد محمد ساداتي الشنقيطي

أستاذ الإعلام الإسلامي بكلية الدعوة
والإعلام بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدى النبوي

مصر - المنصورة

دار الفضية

الرياض - السعودية

والأصفاذ: هي الأغلال والقيود، واحدها: صفا بالسكر، وصفد بالتحريك. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَجُوهُهُمْ أُنْتَارُ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن النار يوم القيامة تغشى وجوه الكفار فتحرقها، وأوضح ذلك في مواضع أخر كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ أُنْتَارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهُمْ أُنْتَارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾... الآية [الأنبياء: ٣٩] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن بلاغ لجميع الناس، وأوضح هذا المعنى في قوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩٠] وبين أن من بلغه ولم يؤمن به فهو في النار كائناً من كان في قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾... الآية [هود: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا الْأَلْبَابَ﴾، بين في هذه الآية الكريمة أن من حكم إنزال القرآن العظيم العلم بأنه تعالى إله واحد، وأن من حكمه أن يتعظ أصحاب العقول، وبين هذا في مواضع أخر، فذكر الحكمة الأولى في سورة هود في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَضَّلْنَا مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ ﴿١٠٦﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾... الآية [هود: ١ - ٢]. كما تقدم إيضاحه، وذكر الحكمة الثانية في قوله: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٠٧﴾﴾ [ص] وهم أصحاب العقول السليمة من شوائب الاختلال. وواحد الأبواب: لب بالضم، والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجر

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾.

ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكفار إذا عرفوا حقيقة الأمر تمنوا أنهم كانوا في دار الدنيا مسلمين، وندموا على كفرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأنعام] وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ الْمَسَاعَةُ بَعْتَهُ قَالُوا يَحْسَرُنَا عَلَيَّ مَا قَرَطْنَا فِيهَا﴾... الآية [الأنعام: ٣١]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿١٧٨﴾﴾

أن إبراهيم خص بهذا الدعاء المؤمنين منهم، وأن الله أخبره أنه رازقهم جميعاً مؤمنهم وكافرهم ثم يوم القيامة يعذب الكافر، وذلك بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦]. قال بعض العلماء: سبب تخصيص إبراهيم المؤمنين، في هذا الدعاء بالرزق أنه دعا لذريته أولاً أن يجعلهم الله أئمة ولم يخصص بالمؤمنين فأخبره الله أن الظالمين من ذريته لا يستحقون ذلك. قال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّتْهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة]، فلما أراد أن يدعو لهم بالرزق خص المؤمنين بسبب ذلك فقال: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فأخبره الله أن الرزق ليس كالإمامة، فالله يرزق الكافر من الدنيا ولا يجعله إماماً؛ ولذا قال له في طلب الإمامة ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ولما خص المؤمنين بطلب الرزق قال له: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبراهيم طلب المغفرة لوالديه وبيّن في آيات أخر أن طلبه الغفران لأبيه إنما كان قبل أن يعلم أنه عدو الله فلما علم ذلك تبرأ منه كقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ آسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِتْيَاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤] ونحو ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف، وأوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧]، ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ﴾. الإهطاع في اللغة: الإسراع، وقد بيّن تعالى في مواضع أخر أنهم يوم القيامة يأتون مهطعين أي مسرعين، إذا دعوا للحساب، كقوله تعالى: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر: ٧، ٨]. وقوله: يوم ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّاقًا﴾ [المعارج: ٤٣]، ﴿ذَلِكَ حَسْرَةٌ عَلَيْنَا يَا سَبِّحُ﴾ [ق: ٤٤] إلى غير ذلك من الآيات.

ومن إطلاق الإهطاع في اللغة بمعنى الإسراع قول الشاعر:

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السماع
أي مسرعين إليه.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٦١﴾﴾. بيّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن المجرمين وهم الكفار يوم القيامة يقربون في الأصفاد، وبيّن تعالى هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَبِيحًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان] ونحو ذلك من الآيات.

[الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات، وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعان الحقيقة تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنه إذا عان النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلماً، ومن يقول: إنهم إذا عاينوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين.

وقرأ نافع وعاصم ﴿رُبَّمَا﴾ بتخفيف الباء، وقرأ الباقون بتشديدها، والتخفيف لغة أهل الحجاز، والتثنية لغة تميم وقيس وربيعة، ومن الأول قول عدي بن الرعاء الغساني: ربما ضربة بسيف صقيل بين بصري وطعنة نجلاء والثاني كثير جداً ومنه قول الآخر:

ألا ربما أهدت لك العين نظرة قصاراك منها أنها عنك لا تجدي

ورب في هذا الموضوع قال بعض العلماء: للتكثير أي يود الكفار في أوقات كثيرة لو كانوا مسلمين؛ ونقل القرطبي هذا القول عن الكوفيين قال: ومنه قول الشاعر:

ألا ربما أهدت لك العين . . . البيت

وقال بعض العلماء: هي هنا للتقليل لأنهم قالوا ذلك في بعض المواضع لا في كلها لشغلهم بالعذاب فإن قيل: «ربما» لا تدخل إلا على الماضي فما وجه دخولها على المضارع في هذا الموضوع؟ فالجواب أن الله تعالى لما وعد بوقوع ذلك صار ذلك الوعد للجزم بتحقيق وقوعه كالواقع بالفعل، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ أَمُرُ اللَّهُ... الآية [النحل: ١] ونحوها من الآيات، فعبّر بالماضي تنزيلاً لتحقيق الوقوع منزلة الوقوع بالفعل. قوله تعالى: ﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر كقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠] وقوله: ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرِمُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المرسلات] وقوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨] وقوله: ﴿ذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف] وقوله: ﴿ذَرَهُمْ حَتَّىٰ يُلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقرر في فن المعاني وفي مبحث الأمر عند الأصوليين أن من المعاني التي تأتي لها صيغة أفعل التهديد كما في الآية المذكورة. وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿ذَرَهُمْ﴾ يعني اتركهم وهذا الفعل لم يستعمل منه إلا الأمر والمضارع، فماضيه ترك ومصدره الترك واسم الفاعل منه تارك، واسم المفعول منه متروك. وقال بعض العلماء: هذه الآية منسوخة بآيات السيف والعلم عند الله. قال القرطبي: «والأمل الحرص على الدنيا والانكباب عليها والحب لها والإعراض عن

الآخرة». وعن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل» وقد قدمنا علاج طول الأمل في سورة البقرة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا بَيِّنَاتٍ الَّتِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [٦]. قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبون للمجنون مع ذلك، والجواب أن قولهم: ﴿بَيِّنَاتٍ الَّتِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ يعنون في زعمه تهكماً منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهمكين بالرسول عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع آخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، وقوله عن قوم شعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٧]. (لو ما) في هذه الآية الكريمة للتحضيض وهو طلب الفعل طلباً حثيثاً، ومعنى الآية أن الكفار طلبوا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طلب تحضيض أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلاً على صدقه أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وبين طلب الكفار هذا في آيات آخر كقوله مع فرعون عن موسى: ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقَرَّنِينَ﴾ [الزخرف: ١٠]، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَأِكَةُ أَوْ نُنزِلُ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَّفَصَّيْنَا الْأَمْرَ﴾ [الأنعام: ٨]، وقوله: ﴿لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقوله: ﴿أَوْ تَأْتِي بَالِهَةٍ وَالْمَلَأِكَةُ قَيْلًا﴾ [الإسراء: ٩٢] إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم أن «لو» تتركب مع «لا وما» لمعنيين: الأول منهما التحضيض، ومثاله في «لو ما» في هذه الآية الكريمة ومثاله في «لولا» قول جرير:

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني ضوطري لولا الكمي المقنعا

يعني فهلا تعدون الكمي المقنع، المعنى الثاني: هو امتناع شيء لوجود غيره وهو في لولا كثير جداً، كقول عامر بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

ومثاله في «لو ما» قول ابن مقبل:

لو ما الحياء ولو ما الدين عبتكما ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

وأما «هل» فلم تتركب إلا مع «لا» وحدها للتحضيض.

تنبيه: قد ترد أدوات التحضيض للتوبيخ والتنديم فتختص بالماضي أو ما في تأويله نحو: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَأَمَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانَهَا إِلَّا قَوْمَ يُوْسُفَ﴾ [يونس: ٩٨]، وقوله: ﴿لَوْلَا جَاءَهُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ [النور: ١٣]، وقوله: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً﴾ [الأحقاف: ٢٨]، وجعل بعضهم منه قول جرير:

تعدون عقر النيب

.....

البيت المتقدم آنفاً. قائلاً: إن مراده توبيخهم على ترك عد الكمي المقنع في الماضي.

قوله تعالى: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ ﴿٨﴾. بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق أي بالوحي وقيل بالعذاب، وقال الزمخشري: «إلا تنزيلاً متلبساً بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار» قال: «ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين وذلك في قوله: ﴿وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ﴾ لأن التنوين في قوله: «إذا» عوض عن جملة، ففيه شرط وجزاء، وتقدير المعنى: ولو نزلت عليهم الملائكة ما كانوا منظرين؛ أي ممهلين بتأخير العذاب عنهم. وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَرْسَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠] إلى غير ذلك من الآيات. وقوله: ﴿مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ قرأه حفص وحمزة والكسائي نزل بنونين الأولى مضمومة والثانية مفتوحة مع كسر الزاي المشددة والملائكة بالنصب مفعول به لتنزل، وقرأ شعبة تنزل بقاء مضمومة ونون مفتوحة مع تشديد الزاي مفتوحة بالبناء للمفعول والملائكة بالرفع نائب فاعل تنزل، وقرأ الباقون تنزل بفتح التاء والنون والزاي المشددة أصله تنزل فحذفت إحدى التائين، والملائكة بالرفع فاعل تنزل كقوله: ﴿نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ﴾ [القدر: ٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَمُهَيِّضُونَ﴾ ﴿٩﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي نزل القرآن العظيم، وأنه حافظ له من أن يزداد فيه أو ينقص أو يتغير منه شيء أو يبدل، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت]، وقوله: ﴿لَا تُحْرِكُهُ يَدٌ إِسَانُكَ يَتَعَجَّلُ بِهِ﴾ ﴿١٠﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ﴿١١﴾ [القيامة] وهذا هو الصحيح في معنى هذه الآية أن الضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَمُهَيِّضُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن وقيل الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] والأول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه جعل في السماء بروجاً. وذكر هذا أيضاً في مواضع أخر كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج]. والبروج: جمع برج.

واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة، فقال بعضهم: البروج الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة، وعن أبي صالح أنها الكواكب

العظام وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس وممن قال به عطية، وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس. وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوث.

قال مقبده - عفا الله عنه -: أطلق تعالى في سورة النساء البروج على القصور الحصينة في قوله: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]. ومرجع الأقوال كلها إلى شيء واحد؛ لأن أصل البروج في اللغة الظهور، ومنه تبرج المرأة بإظهار زينتها، فالكواكب ظاهرة والقصور ظاهرة، ومنازل القمر والشمس كالقصور بجامع أن الكل محل ينزل فيه، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾. صرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه زين السماء للناظرين. وبين في مواضع آخر أنه زينها بالنجوم، وأنها السماء الدنيا كقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾... الآية [الملك: ٥]، وقوله ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا زِينَةً الْكَوْكَبِ﴾ [الصافات: ٦].

قوله تعالى: ﴿وَحَفَظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ﴾ [٧] **إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ** [٨]. وصرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم، وبين هذا المعنى في مواضع آخر كقوله: ﴿وَحَفَظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات] وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ [الملك: ٥] وقوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾ [الشعراء] وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُمٌّ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨] إلى غير ذلك من الآيات. والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: **﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾** [٨] قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع، وجزم به الفخر الرازي أي لكن من استرق السمع، أي الخطفة اليسيرة فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ﴿وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾ [٩] **إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخُطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ تَائِبٌ** [١٠] [الصافات] وقيل: الاستثناء متصل، أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره، إلا من استرق السمع فإننا لم نحفظها من أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوى الوحي، فأما الوحي فلا تسمع منه شيئاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾ [١١]... [الشعراء]، قاله القرطبي. ونظيره **﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ﴾** [الصافات: ١٠] فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: **﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آَلَمٍ﴾** [الصافات: ٨].

تنبيه: يؤخذ من هذه الآيات التي ذكرنا أن كل ما يتمشدد به أصحاب الأعمار الصناعية من أنهم سيصلون إلى السماء وينون على القمر، كله كذب وشقشقة لا طائل تحتها، ومن اليقين الذي لا شك فيه أنهم سيقفون عند حدهم ويرجعون خاسئين أذلاء عاجزين **﴿ثُمَّ أَجِجَ الْبَصَرَ كَرِيحًا يَنْفَلِتُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾** [الملك] ووجه دلالة

الآيات المذكورة على ذلك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن يطلق اسم الشيطان على كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمْنَا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤] وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأعلام: ١١٢] ومنه قوله ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» وقول جرير:

أيام يدعونني الشيطان من غزلي
وكن يهوينني إذ كنت شيطانا

ولا شك أن أصحاب الأقمار الصناعية يدخلون في اسم الشياطين دخولاً أولاً لعتوهم وتمردهم، وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى صرح بحفظ السماء من كل شيطان كائناً من كان في عدة آيات من كتابه، كقوله هنا: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [١٧] وقوله: ﴿وَحَفِظْنَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات.

وصرح بأن من أراد استراق السمع أتبعه شهاب راصد له في مواضع آخر كقوله: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ أَسْمَعَ فَأَنْبَعُهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ [١٨] وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطَفَ الْخَطْفَةَ فَأَنْبَعُهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ﴾ [الصفات: ١٠] وقال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٢] وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلَيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور: ٢٨] وهو تعجيز دال على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ مُمَّاكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [١٩] جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ [٢٠] ﴿ص﴾. فقوله في هذه الآية الكريمة: فليرتقوا في الأسباب، أي فليصعدوا في أسباب السموات التي توصل إليها، وصيغة الأمر في قوله: فليرتقوا، للتعجيز، وإيرادها للتعجيز دليل على عجز البشر عن ذلك عجزاً مطلقاً. وقوله - جل وعلا - بعد ذلك التعجيز ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ [٢٠] يفهم منه أنه لو تنطع جند من الأحزاب الارتقاء في أسباب السماء أنه يرجع مهزوماً صاعراً داخراً ذليلاً، ومما يدل على أن الآية الكريمة يشار فيها إلى شيء ما كان يظنه الناس وقت نزولها إبهامه - جل وعلا - لذلك الجند بلفظة ما في قوله: ﴿جُنْدٌ مَا﴾ وإشارته إلى مكان ذلك الجند أو مكان انهزامه إشارة البعيد في قوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ ولم يتقدم في الآية ما يظهر رجوع الإشارة إليه إلا الارتقاء في أسباب السموات.

فالآية الكريمة يفهم منها ما ذكرنا، ومعلوم أنها لم يفسرها بذلك أحد من العلماء، بل عبارات المفسرين تدور على أن الجند المذكور الكفار الذين كذبوه ﷺ، وأنه ﷺ سوف يهزمهم، وأن ذلك تحقق يوم بدر أو يوم فتح مكة، ولكن كتاب الله لا تزال تظهر غرائبه وعجائبه متجددة على مر الليالي والأيام، ففي كل حين تفهم منه أشياء لم تكن مفهومة من قبل، ويدل على ذلك حديث أبي جحيفة الثابت في الصحيح أنه لما سأل علياً ﷺ هل خصهم رسول الله ﷺ بشيء؟ قال له علي ﷺ: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً

يعطيه الله رجلاً في كتاب الله وما في هذه الصحيفة الحديث. فقوله ﷺ: إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في كتاب الله يدل على أن فهم كتاب الله تتجدد به العلوم والمعارف التي لم تكن عند عامة الناس، ولا مانع من حمل الآية على ما حملها عليه المفسرون.

وما ذكرنا أيضاً أنه يفهم منها لما تقرر عند العلماء من أن الآية إن كانت تحتل معاني كلها صحيحة تعين حملها على الجميع كما حققه بأدلته الشيخ تقي الدين أبو العباس بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي رسالته في علوم القرآن.

وصرح تعالى بأن القمر في السبع الطباق في قوله: ﴿الَّذِي تَرَوُّا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] فعلم من الآيات أن القمر في السبع الطباق، وأن الله حفظها من كل شيطان رجيم، فلم يبق شك ولا لبس في أن الشياطين أصحاب الأقمار الصناعية سيرجعون داخرين صاغرین عاجزين عن الوصول إلى القمر والوصول إلى السماء، ولم يبق لبس في أن السماء التي فيها القمر ليس يراد بها مطلق ما علاك، وإن كان لفظ السماء قد يطلق لغة على كل ما علاك، كسقف البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ سَيْبٌ إِلَى السَّمَاءِ﴾... الآية [الحج: ١٥]. وقد قال الشاعر:

وقد يسمى سماء كل مرتفع وإنما الفضل حيث الشمس والقمر

تصريحه تعالى بأن القمر في السبع الطباق؛ لأن الضمير في قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾ [نوح: ١٦] راجع إلى السبع الطباق وإطلاق المجموع مراداً بعضه كثير في القرآن وفي كلام العرب.

ومن أصرح أدلته: قراءة حمزة والكسائي ﴿فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١] من القتل في الفعلين؛ لأن من قتل بالبناء للمفعول لا يمكن أن يؤمر بعد موته بأن يقتل قاتله، ولكن المراد: فإن قتلوا بعضهم فليقتلهم بعضهم الآخر، كما هو ظاهر، وقال أبو حيان في (البحر المحيط) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وضح كون السموات ظرفاً للقمر؛ لأنه لا يلزم من الظرف أن يملأه المظروف. تقول: زيد في المدينة، وهو في جزء منها.

واعلم أن لفظ الآية صريح في أن نفس القمر في السبع الطباق؛ لأن لفظه «جعل» في الآية هي التي بمعنى صير، وهي تنصب المبتدأ والخبر، والمعبر عنه بالمبتدأ هو المعبر عنه بالخبر بعينه لا شيء آخر، فقولك: جعلت الطين خزفاً، والحديد خاتماً، لا يخفى فيه أن الطين هو الخزف بعينه، والحديد هو الخاتم، وكذلك قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، فالنور المجمعول فيهن هو القمر بعينه، فلا يفهم من الآية بحسب الوضع اللغوي احتمال خروج نفس القمر عن السبع الطباق، وكون المجمعول فيها مطلق نوره؛ لأنه لو أريد ذلك لقليل: وجعل نور القمر فيهن، أما قوله: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فهو صريح في أن النور المجمعول فيهن هو عين القمر؛ ولا يجوز صرف القرآن

عن معناه المتبادر بلا دليل يجب الرجوع إليه، ويوضح ذلك أنه تعالى صرح في سورة الفرقان بأن القمر في خصوص السماء ذات البروج بقوله: ﴿نَبَارَكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان] وصرح في سورة الحجر بأن ذات البروج المنصوص على أن القمر فيها هي بعينها المحفوظة من كل شيطان رجيم بقوله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

وما يزعمه بعض الناس من أنه - جل وعلا - أشار إلى الاتصال بين أهل السماء والأرض في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى] يقال فيه: إن المراد جمعهم يوم القيامة في المحشر، كما أطبق عليه المفسرون، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلُكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام].

ويوضح ذلك تسمية يوم القيامة يوم الجمع في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمُ يَوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النُّعَابِ﴾ [التغابن: ٩]. وكثرة الآيات الدالة على أن جمع جميع الخلائق كائن يوم القيامة، كقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَىٰ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة]، وقوله ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [النساء: ٨٧]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَنُزُلِ الْمَلَكِ تَنْزِيلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان]، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٦٦﴾﴾ [الفجر]، وقوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧].

مع أن بعض العلماء قال: المراد ما بث من الدواب في الأرض فقط، فيكون من إطلاق المجموع مراداً بعضه، وهو كثير في القرآن وفي (لسان العرب)، وبعضهم قال: المراد بدواب السماء الملائكة زاعماً أن الديب يطلق على كل حركة.

قال مقيد - عفا الله عنه -: ظاهر الآية الكريمة أن الله بث في السماء دواب كما بث في الأرض دواب ولا شك أن الله قادر على جمع أهل السموات وأهل الأرض وعلى كل شيء، ولكن الآيات القرآنية التي ذكرنا بينت أن المراد بجمعهم: حشرهم جميعاً يوم القيامة وقد أطبق على ذلك المفسرون. ولو سلمنا تسليمياً جديلاً أنها تدل على جمعهم في الدنيا فلا يلزم من ذلك بلوغ أهل الأرض إلى أهل السماء، بل يجوز عقلاً أن ينحدر من في السماء إلى من في الأرض، لأن الهبوط أهون من الصعود وما يزعمه من لا علم عنده بكتاب الله تعالى من أن قوله - جل وعلا -: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَفْعَلُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَفْعَلُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ [الرحمن] يشير إلى الوصول إلى السماء بدعوى أن المراد بالسلطان في الآية: هو هذا العلم الحادث الذي من نتائجه الصواريخ والأقمار الصناعية وإذاً فإن الآية قد تكون فيها الدلالة على أنهم ينفذون بذلك العلم من أقطار السموات والأرض مردود من أوجه.

الأول: أن معنى الآية الكريمة هو إعلام الله - جل وعلا - خلقه أنهم لا محيى لهم ولا مفر عن قضائه ونفوذ مشيئته فيهم، وذلك عندما تحف بهم صفوف الملائكة يوم القيامة فكلما فروا إلى جهة وجدوا صفوف الملائكة أمامهم، ويقال لهم في ذلك الوقت: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ﴾... الآية [النساء: ١٣٠] والسلطان: قيل الحجة والبينة، وقيل: الملك والسلطنة، وكل ذلك معدوم عندهم يوم القيامة فلا نفوذ لهم كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] وقال: ﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ [٣٢] يَوْمَ تُولُونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

الوجه الثاني: أن الجن أعطاهم الله القدرة على الطيران والنفوذ في أقطار السموات والأرض وكانوا يسترقون السمع من السماء كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] وإنما منعوا من ذلك حين بعث ﷺ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَحِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ [الجن: ٩]، فالجن كانوا قادرين على بلوغ السماء من غير حاجة إلى صاروخ ولا قمر صناعي، فلو كان معنى الآية هو ما يزعمه أولئك الذين لا علم لهم بكتاب الله لم يقل - جل وعلا -: ﴿يَمْعَشَرُ الْجِنُّ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ لأنهم كانوا ينفذون إلى السماء قبل حدوث السلطان المزعوم.

الوجه الثالث: أن العلم المذكور الذي لا يجاوز صناعة يدوية أهون على الله - جل وعلا - من أن يطلق عليه اسم السلطان؛ لأنه لا يجاوز أغراض هذه الحياة الدنيا ولا نظر فيه البتة لما بعد الموت؛ ولأن الدنيا كلها لا تزن عند الله جناح بعوضة. وقد نص تعالى على كمال حقارتها عنده في قوله - جل وعلا -: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤَيِّدَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ﴾ إلى قوله: ﴿لِلْمُنْفِيكَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥] وعلم هؤلاء الكفار نفى الله عنه اسم العلم الحقيقي وأثبت له أنه علم ظاهر من الحياة الدنيا، وذلك في قوله: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعَدُّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١] يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم] فحذق الكفار في الصناعات اليدوية كحذق بعض الحيوانات في صناعتها بإلهام الله لها ذلك، فالنحل تبني بيت عسلها على صورة شكل مسدس يحار فيه حذاق المهندسين ولما أرادوا أن يتعلموا منها كيفية ذلك البناء وجعلوها في أجباح زجاج لينظروا إلى كيفية بنائها أبت أن تعلمهم فطلت الزجاج بالعسل قبل البناء كيلا يروا كيفية بنائها كما أخبرتنا الثقة بذلك.

الوجه الرابع: أنا لو سلمنا تسليماً جديلاً أن ذلك المعنى المزعوم كذباً هو معنى الآية، فإن الله أتبع ذلك بقوله تعالى: ﴿رُسُلٌ عَلَيْكُمُ شَوَاطُءٌ مِّن نَّارٍ﴾... الآية [الرحمن: ٣٥]، فهو يدل على ذلك التقدير على أنهم لو أرادوا النفوذ من أقطارها حرقهم ذلك الشواط والنحاس، والشواط: اللهب الخالص، والنحاس: الدخان، ومنه قول النابغة:

يضيء كضوء سراج السليط لم يجعل الله فيه نحاساً

وكذلك ما يزعمه بعض من لا علم له بمعنى كتاب الله من أن الله أشار إلى اتصال أهل السماوات وأهل الأرض بقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ . . . الآية [الأنبياء: ٤] بصيغة الأمر في لفظة «قل» على قراءة الجمهور وبصيغة الماضي ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ . . . الآية، في قراءة حمزة والكسائي وحفص عن عاصم؛ فإن الآية الكريمة لا تدل على ذلك لا بدلالة المطابقة ولا التضمن ولا الالتزام؛ لأن غاية ما تفيد الآية الكريمة أن الله - جل وعلا - أمر نبيه أن يقول: إن ربه يعلم كل ما يقوله أهل السماء وأهل الأرض على قراءة الجمهور وعلى قراءة الأخوين وحفص، فمعنى الآية أنه ﷺ أخبر قائلًا: إن ربه - جل وعلا - يعلم كل ما يقال في السماء والأرض، وهذا واضح لا إشكال فيه ولا شك أنه - جل وعلا - عالم بكل أسرار أهل السماء والأرض وعلانياتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .

وكذلك ما يزعمه من لا علم عنده بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أنه تعالى أشار إلى أن أهل الأرض سيصعدون إلى السموات واحدة بعد أخرى بقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق]، زاعماً أن معنى الآية الكريمة: لتركين أيها الناس طبقاً؛ أي سماء، عن طبق؛ أي بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماوات، فهو أيضاً جهل بكتاب الله، وحمل له على غير ما يراد به .

اعلم أولاً أن في هذا الحرف قراءتين سبعيتين مشهورتين:

إحداهما لتركين بفتح الباء وبها قرأ من السبعة: ابن كثير وحمزة والكسائي، وعلى هذه القراءة ففي فاعل لتركين ثلاثة أوجه معروفة عند العلماء:

الأول: وهو أشهرها أن الفاعل ضمير الخطاب الواقع على النبي ﷺ أي لتركين أنت يا نبي الله طبقاً عن طبق أي بعد طبق أي حالاً بعد حال أي فترتقي في الدرجات درجة بعد درجة، والطبق في لغة العرب: الحال، ومنه قول الأقرع بن حابس التميمي:

إني امرؤ قد حلبت الدهر أشطره وساقني طبق منها إلى طبق
وقول الآخر:

كذلك المرء إن ينسأ له أجل يركب على طبق من بعده طبق

أي حال بعد حال في البيتين. وقال ابن مسعود والشعبي ومجاهد وابن عباس في إحدى الروايتين والكلبي وغيرهم ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق] أي لتصعدن يا محمد سماء بعد سماء، وقد وقع ذلك ليلة الإسراء. **والثاني:** أن الفاعل ضمير السماء؛ أي لتركين، هي؛ أي السماء طبقاً بعد طبق أي لتنتقلن السماء من حال إلى حال أي تصير تارة كالدخان وتارة كالمهل وتارة تتشقق بالغمام، وتارة تطوى كطي السجل للكتب، **والثالث:** أن الفاعل ضمير يعود إلى الإنسان المذكور في قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا﴾ [الانشقاق: ٦]؛ أي لتركين أيها الإنسان حالاً بعد حال من

صغر إلى كبر ومن صحة إلى سقم كالعكس، ومن غنى إلى فقر كالعكس، ومن موت إلى حياة كالعكس ومن هول من أهوال القيامة إلى آخر وهكذا.

والقراءة الثانية: وبها قرأ من السبعة نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم لتركب بضم الباء وهو خطاب عام للناس المذكورين في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ﴿٧﴾ إلى قوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ﴿١٠﴾ . . . الآية [الانشقاق]، ومعنى الآية لتركب أيها الناس حالاً بعد حال فتنقلون في دار الدنيا من طور إلى طور وفي الآخرة من هول إلى هول.

فإن قيل: يجوز بحسب وضع اللغة العربية التي نزل بها القرآن على قراءة ضم الباء أن يكون المعنى لتركب أيها الناس طبقاً بعد طبق؛ أي سماء بعد سماء حتى تصعدوا فوق السماء السابعة كما تقدم نظيره في قراءة فتح الباء خطاباً للنبي ﷺ. وإذا كان هذا جائزاً في لغة القرآن فما المانع من حمل الآية عليه؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أن ظاهر القرآن يدل على أن المراد بالطبق الحال المتنقل إليها من موت ونحوه وهول القيامة بدليل قوله بعده مرتباً له عليه بالفاء: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠﴾ وَإِذَا فُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿١١﴾ [الانشقاق] فهو قرينة ظاهرة على أن المراد إذا كانوا ينتقلون من حال إلى حال ومن هول إلى هول فما المانع لهم من أن يؤمنوا ويستعدوا لتلك الشدائد؟ ويؤيده أن العرب تسمي الدواهي بنات طبق كما هو معروف في لغتهم.

والوجه الثاني: أن الصحابة رضي الله عنهم هم المخاطبون الأولون بهذا الخطاب وهم أولى الناس بالدخول فيه بحسب الوضع العربي، ولم يركب أحد منهم سماء بعد سماء بإجماع المسلمين فدل ذلك على أن ذلك ليس معنى الآية، ولو كان هو معناها لما خرج منه المخاطبون الأولون بلا قرينة على ذلك.

الوجه الثالث: هو ما قدمنا من الآيات القرآنية المصرحة بحفظ السماء وحراستها من كل شيطان رجيم كائناً من كان، فبهذا يتضح أن الآية الكريمة ليس فيها دليل على صعود أصحاب الأقمار الصناعية فوق السبع الطباق، والواقع المستقبل سيكشف حقيقة تلك الأكاذيب والمزاعم الباطلة.

وكذلك ما يزعمه بعض من ليس له علم بمعنى كتاب الله - جل وعلا - من أن الله تعالى أشار إلى بلوغ أهل الأرض إلى السماوات بقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جِيعًا مِّنْهُ﴾ . . . الآية [الجاثية: ١٣] فقالوا: تسخيره - جل وعلا - ما في السموات لأهل الأرض دليل على أنهم سيبلغون السموات، والآية الكريمة لا تدل على ذلك الذي زعموا أنها تدل عليه؛ لأن القرآن بين في آيات كثيرة كيفية تسخير ما في السماء لأهل الأرض. فبين أن تسخير الشمس والقمر لمنافعهم وانتشار الضوء عليهم ولكي يعلموا عدد السنين والحساب كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَلِيلَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ

أَيْلٌ وَالنَّهَارَ ﴿٢٣٦﴾ [إبراهيم]. ومنافع الشمس والقمر اللذين سخرهما الله لأهل الأرض لا يحصيتها إلا الله كما هو معروف. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا أَيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوِّنَا آيَةَ أَيْلٍ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢] إلى غير ذلك من الآيات. وكذلك سخر لأهل الأرض النجوم ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر كما قال تعالى: ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِي﴾ [الأعراف: ٥٤] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿وَعَلَّمَنِي وَإِلَتَجِمْ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] إلى غير ذلك من الآيات. فهذا هو تسخير ما في السماء لأهل الأرض وخير ما يفسر به القرآن القرآن. ومما يوضح ما ذكرنا أن المخاطبين الأولين بقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠] وهم الصحابة رضي الله عنهم لم يسخر لهم شيء مما في السموات إلا هذا التسخير الذي ذكرنا الذي بيّنه القرآن العظيم في آيات كثيرة، فلو كان يريد به التسخير المزعوم عن طريق الصواريخ والأقمار الصناعية لدخل فيه المخاطبون الأولون كما هو ظاهر.

وكذلك قوله: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٥]؛ فإن معنى مرورهم على ما في السموات من الآيات نظرهم إليها كما بيّنه تعالى في آيات كثيرة كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] وقوله: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١] وقوله: ﴿سَرُّبِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. إلى غير ذلك من الآيات.

واعلم - وفقني الله وإياك - أن التلاعب بكتاب الله - جل وعلا - وتفسيره بغير معناه لمحاولة توقيفه مع آراء كفرة الإفرنج ليس فيه شيء البتة من مصلحة الدنيا ولا الآخرة وإنما فيه فساد الدارين، ونحن إذ نمنع التلاعب بكتاب الله وتفسيره بغير معناه نحض جميع المسلمين على بذل الوسع في تعليم ما ينفعهم من هذه العلوم الدنيوية مع تمسكهم بدينهم كما قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] كما سترى بسطه - إن شاء الله - في سورة بني إسرائيل.

فإن قيل: هذه الآيات التي استدلتتم بها على حفظ السماء من الشياطين واردة في حفظها من استراق السمع وذلك إنما يكون من شياطين الجن فدل ذلك على اختصاص الآيات المذكورة بشياطين الجن؟

فالجواب: إن الآيات المذكورة تشمل بدلالاتها اللغوية شياطين الإنس من الكفار، قال في (لسان العرب): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من الإنس والجن والدواب: شيطان، وقال في (القاموس): والشيطان معروف، وكل عات متمرّد من إنس أو جن أو دابة، اهـ.

ولا شك أن من أشد الكفار تمرداً وعتواً الذين يحاولون بلوغ السماء فدخلوهم في اسم الشيطان لغة لا شك فيه، وإذا كان لفظ الشيطان يعم كل متمرذات، فقوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] صريح في حفظ السماء من كل متمرذات كائناً من كان. وحمل نصوص الوحي على مدلولاتها اللغوية واجب إلا لدليل يدل على تخصيصها أو صرفها عن ظاهرها المتبادر منها كما هو مقرر في الأصول، وحفظ السماء من الشياطين معناه: حراستها منهم. قال الجوهري في (صحاحه): حفظت الشيء حفظاً: أي حرسته، اهـ. وقال صاحب (لسان العرب): وحفظت الشيء حفظاً: أي حرسته، اهـ. وهذا معروف في كلام العرب، فيكون مدلول هذه الآية بدلالة المطابقة ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [٧] أي وحرسناها؛ أي السماء من كل عات متمرذ.

ولا مخالفة لمفهوم قوله تعالى: ﴿رَجِيمٍ﴾ وقوله: ﴿مَارِدٍ﴾ [الصفات: ٧]؛ لأن مثل ذلك من الصفات الكاشفة، فكل شيطان يوصف بأنه رجيم وبأنه مارد وإن كان بعضهم أقوى تمرداً من بعض، وما حرسه الله - جل وعلا - من كل عات متمرذ لا شك أنه لا يصل إليه عات متمرذ كائناً من كان ﴿ثُمَّ أَوَّعَ الْأَبْصَرَ كَذِبَيْنِ يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] والعلم عند الله تعالى، اهـ.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾.

اللواقح جمع لاقح، وأصل اللاقح: التي قبلت اللقاح فحملت الجنين، ومنه قول ذي الرمة:

إذا قلت عاج أو تفتيت أبرقت
بمثل الخوافي لاقحاً أو تلتح
وأصل تلتح: تلتقح، حذفت إحدى التائين، أي توهم أنها لاقح وليس كذلك، ووصف الرياح بكونها لواقح؛ لأنها حوامل تحمل المطر كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧] أي حملت سحباً ثقالاً، فاللواقح من الإبل حوامل الأجنة، واللواقح من الريح حوامل المطر، فالجميع يأتي بخير؛ ولذا كانت الناقة التي لا تلد يقال لها عقيم، كما أن الريح التي لا خير فيها يقال لها عقيم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات]. وقال بعض العلماء: اللواقح بمعنى الملاقح، أي التي تلتقح غيرها من السحاب والشجر، وعلى هذا ففيه وجهان:

أحدهما: أن المراد النسبة، فقوله: لواقح: أي ذوات لقاح، كما يقال سائف ورامح أي ذو سيف ورمح، ومن هذا قول الشاعر:

وغررتني وزعمت أنك لابن في الحي تامر

أي ذو لبن وتمر. وعلى هذا فمعنى لواقح، أي ذوات لقاح؛ لأنها تلتقح السحاب والشجر.

وثانيهما: أن لواقح بمعنى ملاقح جمع ملقحة، وملقح اسم فاعل ألقحت السحاب والشجر كما يلقح الفحل الأنثى، وغاية ما في هذا القول إطلاق لواقح وإرادة ملاقح، ونظيره قول ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد أو غيره:

لبيك يزيد ضارح لخصومة ومختبظ مما تطيح الطوائح

فإن الرواية تطيح - بضم التاء - من أطاح الرباعي، والمناسب لذلك المطيحات لا الطوائح، ولكن الشاعر أطلق الطوائح وأراد المطيحات كما قيل هنا بإطلاق اللوائح وإرادة الملاقيح؛ أي الملقحات باسم الفاعل، ومعنى إلقاح الرياح السحاب والشجر أن الله يجعلها لهما كما يجعل الذكر للأنثى، فكما أن الأنثى تحمل بسبب ضراب الفحل فكذلك السحاب يمتلئ ماء بسبب مري الرياح له والشجر ينفث عن أكمامه وأوراقه بسبب إلقاح الرياح له، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾؛ أي تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها، وقال السيوطي في الدر المنثور: وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾ قال: يرسل الله الرياح فتحمل الماء فتلقح به السحاب فيدر كما تدر اللقحة ثم يمطر. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يرسل الله الرياح فتحمل الماء من السحاب فتمري به السحاب فيدر كما تدر اللقحة، وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾ قال: تلقح الشجرة وتمري السحاب. وأخرج أبو عبيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي رجاء رضي الله عنه قال قلت للحسن رضي الله عنه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾ قال: لوائح للشجر، قلت: أو السحاب، قال: وللسحاب تمر به حتى يمطر. وأخرج ابن جرير عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾ قال: تلقح الماء في السحاب. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِقَ﴾ قال: الرياح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب السحاب، وابن جرير، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه والديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ريح الجنوب من الجنة، وهي الريح اللوائح التي ذكر الله في كتابه وفيها منافع للناس، والشمال من النار تخرج فتمر بالجنة فيصيبها نفحة منها فبردها هذا من ذلك». وأخرج ابن أبي الدنيا عن قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالصبأ وأهلكت عاد بالدبور والجنوب من الجنة وهي الريح اللوائح».

هذا حاصل معنى كلام العلماء في الرياح اللوائح وقد قدمنا قول من قال: إن اللوائح هي حوامل المطر وأن ذلك القول يدل عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ [الأعراف: ٥٧]؛ أي حملتها. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن يكون للشيء أوصاف فيذكر بعضها في موضع، فإننا نبين بقية تلك الأوصاف المذكورة في مواضع أخرى. ومثلنا لذلك بظل أهل الجنة فإنه تعالى وصفه في سورة النساء بأنه ظليل في قوله: ﴿وَدَخَلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وقد

وصفه بأوصاف آخر في مواضع آخر كقوله: ﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥] وقوله: ﴿وَظِلٌّ مَّمْدُودٌ﴾ [الواقعة] إلى غير ذلك من أوصافه.

وإذا علمت ذلك فاعلم أنه تعالى وصف الرياح في هذه الآية بكونها لواقح وقد بينا معنى ذلك آنفاً، ووصفها بأوصاف آخر، من ذلك وصفه لها بأنها تبشر بالسحاب في قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [الروم: ٤٦] وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] على قراءة من قرأها بالباء، ومن ذلك وصفه لها بإثارة السحاب كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ﴾ [الأعراف: ٥٧]، ﴿فَنُفِثَ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]. وقال صاحب الدر المنثور: وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عبيد بن عمير قال: «يبعث الله الميثرة فتقم الأرض قمًا، ثم يبعث المبشرة فتثير السحاب فيجعله كسفًا ثم يبعث المؤلففة فتؤلف بينه فيجعله ركامًا ثم يبعث اللواقح فتلقحه فيمطر». وأخرج ابن المنذر عن عبيد بن عمير قال: «الأرواح أربعة: ريح تقم، وريح تثير تجعله كسفًا، وريح تجعله ركامًا، وريح تمطر».

قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جِبَالًا وَنُحِيطُ بِاللَّذِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٦١]

بين تعالى في هذه الآية الكريمة عظيم منته بإنزال الماء من السماء وجعله إياه عذاباً صالحاً للسقيا، وبين ذلك أيضاً في مواضع آخر كقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ [الأنعام: ٦١] ﴿أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ فِي لَيْلٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٦٢] ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ جُرُودًا مُجْعِلًا فَلا يَلْوَى أَعْيُنُكُمْ وَأَلَّا تَعْلَمُوا أَلَّذِينَ أَنْزَلُوا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠، ١١]، وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَا سَيِّدُ الْكَافِرِينَ﴾ [الفرقان: ٤٩].

والتحقيق أن أسقى وسقى لغتان معناهما واحد كأسرى وسرى، والدليل على ذلك القراءتان السبعيتان في قوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِكُمْ فِيهَا مَعَالِمٌ﴾ [النحل: ٦٦] فإنه قرأه بعض السبعة بضم النون من أسقى الرباعي، وقرأه بعضهم بفتحها من سقى الثلاثي، ويدل على ذلك أيضاً قول لبيد:

سقى قومي بني مجد وأسقى نميراً والقبائل من هلال

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَكُمْ بِخَيْرٍ﴾ فيه للعلماء وجهان من التفسير كلاهما يشهد له قرآن؛ الأول: أن معنى ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَكُمْ بِخَيْرٍ﴾؛ أي ليست خزائنه عندكم بل نحن الخازنون له ننزله متى شئنا، وهذا الوجه تدل عليه آيات كقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الأنعام: ٦١] وقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية [المنافقون: ٧] ونحو ذلك من الآيات، والوجه الثاني: أن معنى ﴿وَمَا أَنْشَأْنَاهُ لَكُمْ بِخَيْرٍ﴾ بعد أن أنزلناه عليكم؛ أي لا تقدر على حفظه في الآبار والعيون والغدران

بل نحن الحافظون له فيها ليكون ذخيرة لكم عند الحاجة، ويدل على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَشْكَنَتْ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهَا لَقَادِرُونَ﴾ [١٨] [المؤمنون] وقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [٢٠] [الملك] وقوله: ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُمْ طَلْبًا﴾ [٤] [الكهف] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٢١] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحيي ويميت، وأوضح ذلك في آيات كثيرة كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِنَّا لَآلِمْ بِمَا نَفْعُ﴾ [ق]، وقوله تعالى: ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [٨] [الدخان]. وبين في مواضع أخر أنه أحياهم مرتين وأماتهم مرتين كقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ آتِنَا آتَيْنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَتَيْنَا﴾ [غافر: ١١] وقوله: ﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] والإماتة الأولى هي كونهم نطفاً وعلقاً ومضغاً، والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا، والإحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم، والإحياءة الثانية بعثهم من قبورهم، أحياء يوم القيامة، وسيأتي له - إن شاء الله تعالى - زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث، ولم يبين الشيء الذي يرثه، وبين في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم] وقوله: ﴿وَنُرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَردًا﴾ [٨٠] [مريم]. ومعنى «ما يقول» أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِعِبَادَتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلدًا﴾ [٧٧] [مريم]. ومعنى كونه يرث الأرض ومن عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفاً بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه خلق أبانا آدم من صلصال من حمأ مسنون، والصلصال: الطين اليابس الذي يصل أي يصوت من يسه إذا ضربه شيء ما دام لم تمسه النار فإذا أمسته النار فهو حينئذٍ فخار، وأصل الصليل والصلصلة واحد، والفرق بينهما أنك إذا توهمت في الصوت مداً فهو صليل، وإذا توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة، والحمأ: الطين الأسود المتغير، والمسنون قيل: المصور من سنة الوجه وهي صورته، ومنه قول ذي الرمة:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما سأله نافع بن الأزرق عن معنى المسنون وأجابه بأن معناه المصور قال له: وهل تعرف العرب ذلك فقال له ابن عباس: نعم أما سمعت قول حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وهو يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أغر كأن البدر سنة وجهه جلا الغيم عنه ضوءه فتبدداً
 وقيل: المسنون المصبوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من
 الجواهر المذوبة في أمثلتها وقيل: المسنون المتنن، وقال بعض العلماء: المسنون
 الأملس. قال: ومنه قول عبد الرحمن بن حسان:

ثم خاصرتها إلى القبة الخضراء تمشي من مرمز مسنون

أي أملس صقيل، قاله ابن كثير. وقال مجاهد: الصلصال هو المتنن. وما قدمنا
 هو الحق بدليل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن] إذا
 عرفت هذا فاعلم أن الله - جل وعلا - أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه
 آدم فبين أنه أولاً تراب بقوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل
 عمران: ٥٩]، وقوله: ﴿بَنَّايَهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾
 [الحج: ٥]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [غافر: ٦٧] إلى غير ذلك
 من الآيات. ثم أشار إلى أن ذلك التراب بلُّ فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع آخر
 كقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١] وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْةٍ
 مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون] وقوله: ﴿وَبَدَأَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧] إلى غير ذلك
 من الآيات، وبين أن ذلك الطين أسود، وأنه متغير بقوله هنا: ﴿مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾. وبين
 أيضاً أنه يبس حتى صار صلصالاً أي تسمع له صلصلة من يبسه بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
 الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ﴾... الآية وقوله: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن]،
 والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ أَبِي أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾. بين في هذه الآية الكريمة
 أن إبليس أبي أن يسجد لآدم، وبين في مواضع آخر أنه تكبر عن امتثال أمر ربه كقوله
 في البقرة: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ أَبِي وَأَسْتَكْبَرُ﴾... الآية [البقرة: ٣٤]، وقوله في سورة ص: ﴿إِلَّا
 إِلَيْسَ أَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [ص: ٧٦] وأشار إلى ذلك هنا بقوله: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ
 لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ كما تقدمت الإشارة إليه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾. بين تعالى في هذه
 الآية الكريمة أنه سأل إبليس سؤال توبيخ وتقريع عن الموجب لامتناعه من السجود لآدم
 الذي أمره به ربه - جل وعلا -، وبين أيضاً في (الأعراف وص) أنه وبخه أيضاً بهذا
 السؤال قال في الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢] وقال في ص:
 ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص: ٧٥]. وناداه باسمه إبليس في (الحجر
 وص) ولم يناده به في الأعراف.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِسَجْدٍ لِشَيْءٍ خَلَقْتُهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾. هذا القول
 الذي ذكره - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن إبليس - لعنه الله - أنه لم يكن ليسجد لبشر

مخلوق من الطين مقصوده به أنه خير من آدم؛ لأن آدم خلق من الطين وهو خلق من النار كما يوضحه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٣٤). بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أمر إبليس بالخروج من الجنة مؤكداً أنه رجيم وبين في الأعراف أنه خروج هبوط وأنه يخرج متصفاً بالصغار والذل والهوان بقوله: ﴿قَالَ فَأَهِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٣٥). بين في هذه الآية الكريمة أن اللعنة على إبليس إلى يوم الدين وصرح في سورة (ص) بأن لعنته - جل وعلا - على إبليس إلى يوم الدين بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [ص: ٧٨] وقد قدمنا في الفاتحة بيان يوم الدين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الآية.

قال بعض العلماء: هذا قسم من إبليس بإغواء الله له على أنه يغوي بني آدم إلا عباد الله المخلصين ويدل عليه أنه أقسم بعزته تعالى على ذلك في قوله: ﴿قَالَ فِعْرَئِكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٧] وقيل: الباء في قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ سببية.

قوله تعالى: ﴿لَأَزِيَنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَاغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن إبليس أخبر أنه سيبدل جهده في إضلال بني آدم حتى يضل أكثرهم، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿لَأَفْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١١) ثم لآغويَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، وقوله: ﴿وَقَالَ لَا اتَّخَذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾... الآية [النساء: ١١٨]، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٦٢]، وهذا قاله إبليس قبل أن يقع ظناً منه أنه يتمكن من إضلال أكثر بني آدم، وقد بين تعالى أنه صدق ظنه هذا بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيْقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٧٣]، وكل آية فيها ذكر إضلال إبليس لبني آدم بين فيها أن إبليس وجميع من تبعه كلهم في النار كما قال هنا: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (١٤) لما سبعة آيات. وقال في الأعراف: ﴿قَالَ أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْجُورًا وَمَا مَدْحُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لِأَمْلَانٍ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] وقال في سورة بني إسرائيل: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ فَاتَّجِبْ جَهَنَّمَ جَزْأً وَكُرْ جَزْأً مَوْفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٣] وقال في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ (١٥) لِأَمْلَانٍ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَعَن يَتَّبِعْ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ (١٦) ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الشيطان لما أوعده بأنه سيضل أكثر بني آدم استثنى من ذلك عباد الله المخلصين معترفاً بأنه لا قدرة له على إضلالهم، ونظيره قوله في سورة ص أيضاً: ﴿قَالَ فِعْرَئِكَ لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ [ص]. وعباد الله المخلصون هم المرادون بالاستثناء في قوله في بني إسرائيل ﴿لَا حَتَمَكَ دَرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقوله في سبأ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ] وهم الذين احترز منهم بقوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]. وبين تعالى في مواضع آخر أن الشيطان لا سلطان له على أولئك المخلصين كقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [٩٩] إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ ﴿[النحل: ٩٩، ١٠٠] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقوله: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ قرأه ابن عامر وابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام اسم فاعل وقرأه نافع والكوفيون بفتح اللام بصيغة اسم المفعول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ ﴿٤٦﴾. بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين يوم القيامة في جنات وعيون، ويقال لهم يوم القيامة: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ وذكر في مواضع آخر صفات ثوابهم وربما بين بعض تقواهم التي نالوا بها هذا الثواب الجزيل كقوله في الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَانْتَهُمُ رَبُّهُمْ ءَاتَهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْآسَافِ هُمْ يُسْتَفْتَوْنَ ﴿١٨﴾ وَفِي ءَمْرِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿١٩﴾ [الذاريات]، وقوله في الدخان: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ ءَامِينَ﴾ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ ءَامِينِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ [الدخان]، وقوله في الطور: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٧٧﴾ فَكِهِينَ بِمَا ءَانْتَهُمُ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٨﴾ كَلُوا وَآشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّجْتُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٨٠﴾ [الطور]، وقوله في القمر: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾ [القمر]، وقوله في المرسلات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿٤١﴾ وَفَوْكَةٍ مِّمَّا يَسْتَهْوُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَآشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ [المرسلات] إلى غير ذلك من الآيات.

وقد بينا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التي تضمنها أن الشيء الذي له أوصاف متعددة في القرآن نبين أوصافه عند ذكر بعضها كما تقدم مثاله مراراً وكما هنا .

والمتقي اسم فاعل الانتقاء وأصل مادة الانتقاء (وقى) ليف مفروق فاؤه واو وعينه قاف ولامه ياء فدخله تاء الافتعال فصارت وقى أو تقى فأبدلت الواو التي هي فاء الكلمة تاء للقاعدة المقررة في التصريف أن كل واو هي فاء الكلمة إذا دخلت عليها تاء الافتعال يجب إبدالها، أعني الواو تاء وإدغامها في تاء الافتعال نحو اتصال من الوصل واتزن من الوزن واتحد من الوحدة واتقى من الوقاية، وعقد هذه القاعدة ابن مالك في الخلاصة بقوله:

ذو اللين فاتا في افتعال أبدياً وشذ في ذي الهمز نحو ائتكلوا
والإتقاء في اللغة: اتخاذ الوقاية دون المكروه، ومنه قول نابغة ذبيان:
سقط النصيب ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد
يعني استقبلتنا بيدها جاعلة إياها وقاية تقيها من أن ننظر إلى وجهها لأنها تستر
بها، وقول الآخر:

فألقت قناعاً دونه الشمس واتقت بأحسن موصولين كف ومعصم
والتقوى في اصطلاح الشرع: هي اتخاذ الوقاية دون عذاب الله وسخطه وهي
مركبة من أمرين: هما امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه
نزع ما في صدور أهل الجنة من الغل في حال كونهم إخواناً وبين هذا المعنى في الأعراف
وزاد أنهم تجري من تحتهم الأنهار في نعيم الجنة وذلك في قوله: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾. . . الآية [الأعراف: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ بين في هذه الآية الكريمة أن المتقين الذين هم
أهل الجنة يوم القيامة يكونون على سرر، وأنهم متقابلون ينظر بعضهم إلى وجه بعض
ووصف سررهم بصفات جميلة في غير هذا الموضع، منها أنها منسوجة بقضبان الذهب
وهي الموضونة قال في الواقعة: ﴿ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٣] وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [١٤] عَلَى سُرُرٍ
مَوْضُونَةٍ﴾ [١٥] مُتَّكِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ [١٦] [الواقعة]، وقيل: الموضونة المصفوفة كقوله:
﴿مُتَّكِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠] ومنها أنها مرفوعة كقوله في الغاشية: ﴿فِيهَا سُرُرٌ
مَرْفُوعَةٌ﴾ [١٣] [الغاشية] وقوله في الواقعة: ﴿وَفَرَشَ مَرْفُوعَةً﴾ [١٦] [الواقعة] وقوله: ﴿مُتَّكِينَ عَلَى
رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [١٦] [الرحمن] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة لا يمسهم فيها نصب وهو التعب
والإعياء، وقوله نصب نكرة في سياق النفي فتعم كل نصب، فتدل الآية على سلامة
أهل الجنة من جميع أنواع التعب والمشقة، وأكد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ
أَحْلَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٢٥]؛ لأن
اللغوب هو التعب والإعياء أيضاً، قد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله أمرني أن
أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن أهل الجنة
لا يخرجون منها وأكد نفي إخراجهم منها بالباء في قوله: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾ فهم دائمون في
نعيمها أبداً بلا انقطاع. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [١٧] خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف]،

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٥١﴾ مَكِّيَّاتٍ فِيهِ أَبَدًا﴾، وقوله: ﴿عَطَاءً غَيْرَ مُجْدُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨] وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لِرِزْقِنَا مَا لَكُمْ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٢﴾﴾ [ص] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَافٍ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾﴾ بين في مواضع آخر أن صاف إبراهيم المذكورين في هذه الآية أنهم ملائكة كقوله في هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلَمًا قَالُوا سَلَمًا ﴿٥١﴾﴾ [هود: ٦٩] كما تقدم، وقوله: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ ﴿٥٤﴾﴾ لم يبين تعالى في هذه الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أو لا؛ لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم، وإنما قال عنه إنه قال لهم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ﴾ وبيّن في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود: ﴿قَالَ سَلَمًا فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعَجَلٍ حَسِيدٍ﴾ [هود: ٦٩]، وقوله في الذاريات: ﴿قَالَ سَلَمًا قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ سَمِينٍ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات]، وبيّن أن الوجع المذكور هنا هو الخوف لقوله في القصة بعينها في هود: ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود: ٧٠] وقوله في الذاريات: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وقد قدمنا أن من أنواع البيان في هذا الكتاب بيان اللفظ بمرادف له أشهر منه كما هنا لأن الخوف يرادف الوجع وهو أشهر منه، وبيّن أن سبب خوفه هو عدم أكلهم بقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن أولئك الضيف الكرام الذين هم ملائكة بشروا إبراهيم بسلام موصوف بالعلم ونظير ذلك قوله تعالى أيضاً في الذاريات: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]. وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات: ﴿تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَوقٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٨ - ٣٠]؛ لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها، أي لطمته قائمة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى، ويزيده إيضاحاً تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحاً باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَمَّا بَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٥٦﴾﴾ قَالَتْ يَوْتَلِّيْءٌ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود]. وأما الغلام الذي بشر به إبراهيم الموصوف بالحلم المذكور في الصفات في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَاهِدِينَ ﴿٥٨﴾﴾ رَبِّي هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٩﴾﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿٦٠﴾﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي فِي الْمَأْتَرِ ﴿٦١﴾﴾ آتَى أَدْبَاجَكَ ﴿٦٢﴾﴾ ... الآية [الصفات: ٩٩ - ١٠٢] فهو إسماعيل وسترى - إن شاء الله تعالى - في سورة الصفات دلالة الآيات القرآنية على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق على وجه

قاطع للنزاع، والغلام يطلق في لغة العرب على العبد وعلى الصغير الذي لم يبلغ وعلى الرجل البالغ ومن إطلاقه على البالغ، قول علي رضي الله عنه يوم النهروان:

أنا الغلام القرشي المؤتمن أبو حسين فاعلمن والحسن
وقوله صفوان بن المعطل السلمي لحسان رضي الله عنه.

تلق ذباب السيف عني فإنني غلام إذا هوجيت لست بشاعر
وقول ليلي الأخيلية تمدح الحجاج بن يوسف:

إذا نزل الحجاج أرضاً مريضة تتبع أقصى دائها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلام إذا هز القناة سقاها

وربما قالوا للأثني غلامه، ومنه قول أوس بن غلفاء الهجيمي يصف فرساً:

ومركضة صريحى أبوها يهان لها الغلام والغلام
قوله تعالى: ﴿قَالَ ابْشِرْ تُمُونِي عَلَيَّ أَنْ مَسَّنِيَ الْكَبِيرُ﴾.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال: إنه وقت البشرى بإسحاق مسه الكبير، وصرح في هود بأن امرأته أيضاً قالت: إنه شيخ كبير في قوله عنها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود: ﴿يَوْتَلَقْ ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقوله في الذاريات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]. وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضاً، وذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكَبِيرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ ﴿٣٦﴾ [إبراهيم].

قوله تعالى: ﴿فِيمَ بُشِّرُونَ﴾. الظاهر أن استفهام نبي الله إبراهيم - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - للملائكة بقوله: ﴿فِيمَ بُشِّرُونَ﴾ استفهام تعجب من كمال قدرة الله تعالى، ويدل على ذلك أنه تعالى ذكر أن ما وقع له وقع نظيره لامرأته حيث قالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وقد بين تعالى أن ذلك الاستفهام لعجبها من ذلك الأمر الخارق للعادة في قوله: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]. ويدل عليه أيضاً وقوع مثله من نبي الله زكريا - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لأنه لما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً فَإِنَّهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾ عجب من كمال قدرة الله تعالى فقال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ [آل عمران: ٣٨ - ٤٠]. وقوله: ﴿فِيمَ بُشِّرُونَ﴾ قرأه ابن عامر وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي بفتح النون مخففة وهي نون الرفع وقرأه نافع بكسر النون مخففة - وهي نون الوقاية مع حذف ياء المتكلم لدلالة الكسرة عليها، وقرأه ابن كثير بالنون المكسورة المشددة مع المد، فعلى قراءة ابن كثير لم تحذف نون الرفع ولا المفعول به بل نون الرفع مدغمة في نون الوقاية وياء المتكلم هي المفعول به، وعلى قراءة الجمهور فنون الرفع ثابتة والمفعول به محذوف على حد قول ابن مالك:

وحذف فضلة أجز إن لم يضر كحذف ما سيق جواباً أو حصر

وعلى قراءة نافع فنون الرفع محذوفة لاستثقال اجتماعها مع نون الوقاية .

قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾﴾ . بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن نبيه إبراهيم قال للملائكة: إنه لا يقنط من رحمة الله - جل وعلا - إلا الضالون عن طريق الحق، وبين أن هذا المعنى قاله أيضاً يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لبنيه في قوله: ﴿يَكْبَتِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] قال أبو حيان في البحر المحيط في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ . . . الآية، وروح الله رحمته وفرجه وتفيسه .

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ ﴿٥٩﴾﴾ . . . الآية . أشار في هذه الآية الكريمة إلى أن المراد بهؤلاء القوم المجرمين قوم لوط الذين أرسل إليهم فكذبوه، ووجه إشارته تعالى لذلك استثناء لوط وأهله غير امرأته في قوله: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ إِلَّا أَمْرَاتَهُ ﴿٥٩﴾﴾، وصرح بأنهم قوم لوط بقوله في هود في القصة بعينها: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠] . وصرح في الذاريات بأنهم أرسلوا إلى هؤلاء القوم المجرمين ليرسلوا عليهم حجارة من طين في قوله: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الذاريات] . وصرح في العنكبوت أنهم قالوا: إنا مهلكوهم بسبب ظلمهم ومنزلون عليهم رجزاً من السماء بسبب فسقهم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٦١﴾﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا ﴿٦٢﴾﴾ [العنكبوت: ٣١، ٣٢] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتِكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٣﴾﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَيْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٣٣، ٣٤] . وقوله: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾﴾ بين في هذه الآية الكريمة أنه استثنى آل لوط من ذلك العذاب النازل بقومه، وأوضح هذا المعنى في آيات أخر كما تقدم في هود في قوله: ﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانِكَ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١] وقوله في العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتُكَ ﴿٦٥﴾﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف] وقوله: ﴿فَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾ . . . الآية [الشعراء] وقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات . وما ذكر في هذه الآية الكريمة من استثناء امرأته من أهله الناجين في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرَاتَهُ فَذَرْنَا إِنَّا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ أوضحه في هذه الآيات التي ذكرنا آنفاً ونحوها من الآيات وبين في الذاريات أنه أنجى من كان في قوم لوط من المؤمنين وأنهم لم يكن فيهم من المسلمين إلا بيت واحد وهم آل لوط وذلك في قوله: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات] .

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قومٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ .

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطاً - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - لما جاءه الملائكة والمرسلون لإهلاك قومه قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قومٌ مُنْكَرُونَ﴾، وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيئهم، وأنه ضاق ذرعاً بذلك كقوله في هود: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود] وقوله في العنكبوت: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ﴿٣٣﴾﴾ وذكر تعالى في الذاريات أن نبيه إبراهيم قال لهم أيضاً قوم منكرون كما ذكر عن لوط هنا وذلك في قوله: ﴿قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات: ٢٥]. وقوله ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ قيل معناه أنهم غير معروفين والنكرة ضد المعرفة وقيل: إنه رآهم في صفة شباب حسان الوجوه فخاف أن يفعل بهم قومه فاحشة اللواط فقال: ﴿إِنَّكُمْ قومٌ مُنْكَرُونَ﴾ وقال الزمخشري في (الكشاف): منكرون أي تنكركم نفسي وتفر منكم فأخاف أن تطرقوني بشر بدليل قوله: ﴿بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ وَأَيُّنَا بِالْحَقِّ﴾ . . . الآية، ويدل على هذا الوجه أنه بين في هود أن سبب إنكار إبراهيم لهم عدم أكلهم من لحم العجل الذي قدمه إليهم وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَّرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴿٧٠﴾﴾ [هود: ٧٠]؛ لأن من استضاف وامتنع من الأكل خيف منه الشر، وقوله تعالى في هذه الآيات: ﴿إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ ﴿٦١﴾﴾ قرأه حمزة والكسائي بإسكان النون بعد الميم المضمومة مخففاً اسم فاعل أنجى على وزن أفعل، وقرأه غيرهما من القراء بفتح النون وتشديد الجيم اسم فاعل نجى على وزن فعل بالتضعيف والإنجاء والتنجية معناهما واحد، وقوله: ﴿قَدَرْنَا مِنْهَا لَمِنَ الْغَدِيرِ ﴿٦٢﴾﴾ قرأه أبو بكر عن عاصم بتخفيف الدال وقرأه غيره بتشديدها وهما لغتان معناهما واحد، وقوله: ﴿جَاءَ آلَ لُوطٍ ﴿٦٣﴾﴾ قرأه قالون والبيزي وأبو عمرو بإسقاط الهمزة الأولى وتحقيق الثانية مع القصر والمد، وقرأه ورش أيضاً بتحقيق الأولى وإبدال الثانية ألفاً مع القصر والمد. وعن ورش أيضاً تحقيق الأولى وتسهيل الثانية مع القصر والتوسط والمد وقرأه قنبل مثل قراءة ورش إلا أنه ليس له مع التسهيل إلا القصر، وقرأه الباقون بتحقيق الهمزتين وكل على أصله من المد وما ذكر من قراءة ورش وقنبل هو التحقيق عنهما وإن قيل غيره، والعلم عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ . سبب استبشار قوم لوط أنهم ظنوا الملائكة شباباً من بني آدم فحدتتهم أنفسهم بأن يفعلوا بهم فاحشة اللواط كما يشير لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُون ﴿٦٤﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ صَيْفِهِ فَطَمَسَتْ أَعْْيُنُهُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [القمر: ٣٧]، وقوله: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَبْلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ . بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن فيما أوقع من النكال بقوم لوط آيات للمتأملين في ذلك تحصل لهم بها الموعظة

والاعتبار والخوف من معصية الله أن ينزل بهم مثل ذلك العذاب الذي أنزل بقوم لوط لما عصوه وكذبوا رسوله، وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله في العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات] وقوله في الذاريات: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات] وقوله هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، وقوله في الشعراء بعد ذكر قصة قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ [الشعراء] كما صرح بمثل ذلك في إهلاك قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب في الشعراء، وقوله: ﴿لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ أصل التوسم تفعل من الوسم وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت مبسمه فيه، أي علامته التي تدل عليه، ومنه قول عبد الله بن رواحة رضي الله عنه في النبي ﷺ:

إني توسمته فيك الخير أعرفه والله يعلم أنني ثابت النظر
وقال الآخر:

توسمت لما رأيت مهابة عليه وقلت المرء من آل هاشم
هذا أصل التوسم وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد، فعن قتادة: للمتوسمين أي المعترين وعن مجاهد: للمتوسمين أي المتفرسين، وعن ابن عباس، والضحاك: للمتوسمين أي الناظرين وعن مالك عن بعض أهل المدينة: للمتوسمين أي للمتأملين. ولا يخفى أن الاعتبار والنظر والتفرس والتأمل معناها واحد، وكذلك قول ابن زيد ومقاتل: للمتوسمين؛ أي للمتفكرين وقول أبي عبيدة: للمتوسمين أي للمتبصرين، فمأل جميع الأقوال راجع إلى شيء واحد وهو أن ما وقع لقوم لوط فيه موعظة وعبرة لمن نظر في ذلك وتأمل فيه حق التأمل، وإطلاق التوسم على التأمل والنظر والاعتبار مشهور في كلام العرب، ومنه قول زهير:

وفيهن ملهى لا للصدیق ومنظر أنيق لعين الناظر المتوسم
أي المتأمل في ذلك الحسن، وقول طريف بن تميم العنبري:

أو كلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم
أي ينظر ويتأمل، وقال صاحب (الدر المنثور): وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: للناظرين. وأخرجه عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة عن قتادة في قوله: ﴿لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ قال: هم المتفرسون.

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ قال: هم المتفرسون. وأخرج البخاري في تاريخه والترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن السني وأبو نعيم معاً في الطب وابن مردويه والخطيب عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم

قرأ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ قال: «للمتفرسين» وأخرج ابن جرير عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن ينظر بنور الله» وأخرج ابن جرير عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «احذروا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله وينطق بتوفيق الله» وأخرج الحكيم الترمذي والبخاري وابن السني وأبو نعيم عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عبداً يعرفون الناس بالتوسم».

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا لِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ ﴿٧٦﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وآثار تدمير الله لها بسبيل مقيم، أي بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدون في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعالهم لئلا ينزل الله بكم مثل ما أنزل بهم وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَكُرُورٌ عَلَيْهِمْ مُّصِيبِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَيَأْتِيْلُ أَفْلًا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [الصفات] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا﴾ ﴿٧٩﴾ [محمد] وقوله فيها وفي ديار أصحاب الأيكة: ﴿وَإِنَّمَا لِيَأْمُرُ مُّبِينٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ فانتقمنا منهم.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية أن أصحاب الأيكة كانوا ظالمين، وأنه - جل وعلا - انتقم منهم بسبب ظلمهم، وأوضح هذه القصة في مواضع أخر كقوله في الشعراء: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا نُنْفِقُونَ ﴿٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُمْ كَانُوا عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٧٩﴾ [الشعراء] فبين في هذه الآية أن ظلمهم هو تكذيبهم رسولهم وتطيفهم في الكيل وبخسهم الناس أشياءهم وأن انتقامه منهم بعذاب يوم الظلة، وبين أنه عذاب يوم عظيم، والظلة سحابة أظلتهم فأضرمها الله عليهم ناراً فأحرقتهم، والعلم عند الله تعالى، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير «ليكة» . . . في (الشعراء وص) بلام مفتوحة أول الكلمة وتاء مفتوحة آخرها من غير همز ولا تعريف على أنه اسم للقريه غير منصرف، وقرأ أبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي «الأيكة» بالتعريف والهمز وكسر التاء، وقرأ كذلك جميع القراء في (ق والحجر) قال أبو عبيدة: ليكة، والأيكة اسم مدينتهم كمكة وبكة، والأيكة في لغة العرب: الغيضة وهي جماعة الشجر، والجمع الأيكة، وإنما سماها أصحاب الأيكة؛ لأنهم كانوا أصحاب غياض ورياض، ويروى أن شجرهم كان دوماً وهو المقل، ومن إطلاق الأيكة على الغيضة قول النابغة:

تجلو بقادمتي حمامة أيكة برداً أسف لتائه بالاثمد

وقال الجوهري في (صحاحه): ومن قرأ أصحاب الأيكة فهي الغيضة، ومن قرأ ليكة فهي اسم القريه ويقال هما مثل بكة ومكة، وقال بعض العلماء: الأيكة: الشجرة، والأيك: هو الشجر الملتف.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ ﴿٨٠﴾﴾ .

الحجر: منازل ثمود بين الحجاز والشام عند وادي القرى، فمعنى الآية الكريمة: كذبت ثمود المرسلين، وقد بين تعالى تكذيب ثمود لنبية صالح - عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام - في مواضع آخر، كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَّا تَتَّقُونَ ﴿الشعراء: ١٤١، ١٤٢﴾. وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدْنَا نَبَعَهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صَلَكَ وَسَعُرِ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر] وقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ أَخِنَا بِمَا نَعِدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف] إلى غير ذلك من الآيات، وإنما قال إنهم كذبوا المرسلين مع أن الذي كذبوه هو صالح وحده؛ لأن دعوة جميع الرسل واحدة؛ وهي تحقيق معنى «لا إله إلا الله» كما بينه تعالى بأدلة عمومية وخصوصية؛ قال معمماً لجميعهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ . . . الآية [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتَ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] وقال: ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف] إلى غير ذلك من الآيات، وقال في تخصيص الرسل بأسمائهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. وقال: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٨٥] إلى غير ذلك من الآيات، فإذا حققت أن دعوة الرسل واحدة عرفت أن من كذب واحداً منهم فقد كذب جميعهم؛ ولذا صرح تعالى بأن من كفر بعضهم فهو كافر حقاً. قال: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا ﴿[النساء: ١٥٠، ١٥١]. وبين أنه لا تصح التفرقة بينهم بقوله: ﴿لَا نَفَرًا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقوله: ﴿لَا نَفَرًا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ووعده الأجر على عدم التفرقة بينهم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾ . . . الآية [النساء: ١٥٢]. وقد بينا هذه المسألة في كتابنا «دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب» .

قوله تعالى: ﴿وَأَنِيتَهُمْ ءَابَيْنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾﴾ . ذكر تعالى في هذه الآية

الكريمة أنه أتى أصحاب الحجر - وهم ثمود - آياته فكانوا عنها معرضين. والإعراض: الصدود عن الشيء وعدم الالتفات إليه؛ كأنه مشتق من العرض - بالضم - وهو الجنب؛ لأن المعرض لا يولي وجهه بل يثني عطفه ملتفتاً صاداً.

ولم يبين - جل وعلا - هنا شيئاً من تلك الآيات التي آتاهم، ولا كيفية إعراضهم عنها، ولكنه بين ذلك في مواضع آخر، فبين أن من أعظم الآيات التي آتاهم تلك الناقة التي أخرجها الله لهم، بل قال بعض العلماء: إن في الناقة المذكورة آيات جملة، كخروجها عشراء، وبراء، جوفاء، من صخرة صماء، وسرعة ولادتها عند خروجها،

وعظمتها حتى لم تشبهها ناقة، وكثرة لبنها حتى يكفيهم جميعاً، وكثرة شربها؛ كما قال تعالى: ﴿لَمَّا شَرِبُوا وَلَكُمْ شَرِبَ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وقال: ﴿وَبَيْنَهُمْ أَنْ الْمَاءَ قِسْمًا بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحَضَّرٌ﴾ [القمر].

فإذا علمت ذلك فاعلم أن مما يبين قوله هنا: ﴿وَأَلَيْنَهُمْ آيَاتِنَا﴾ قوله: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [١٥٤] قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ [١٥٥] ﴿[الشعراء]، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿وَأَلَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُصْرَةً﴾ الآية [الإسراء: ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَاءَ لَهَا فَارْتَمَتْ وَأَصْطَبِرَ﴾ [١٦٧] [القمر]، وقوله: ﴿وَيَقْوِرْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود] إلى غير ذلك من الآيات.

وبين إعراض قوم صالح عن تلك الآيات في مواضع كثيرة؛ كقوله: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آيَاتِنَا بِمَا نَعُدُّنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [١٦٧] [الأعراف]، وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتُّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله: ﴿كَذَبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [١٦٧] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٦٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَغَدَمَهُ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٦٩﴾ [الشمس]، وقوله: ﴿فَنَادَا صَاحِبِهِمْ فَطَاعُوا نَقَرَ﴾ [١٦٩] [القمر]، وقوله: ﴿وَأَلَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُصْرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ [١٥٦] مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ [١٥٤] [الشعراء]. إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [٨١]. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن أصحاب الحجر وهم ثمود قوم صالح كانوا آمنين في أوطانهم، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً. وأوضح هذا المعنى في مواضع آخر، كقوله تعالى: ﴿أَتَتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ﴾ [١٦٦] فِي جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ [١٦٧] وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ [١٦٨] وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ [١٦٩] [الشعراء]، وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْحِتُونَ مِنْ سُهُولِهَا فُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَءَ اللَّهِ﴾ . . . الآية [الأعراف: ٧٤]، وقوله: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [٨١] [الفجر]، أي قطعوا الصخر بنحته بيوتاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق؛ أي ليدل بذلك على أنه المستحق لأن يعبد وحده، وأنه يكلف الخلق ويجازيهم على أعمالهم.

فدلَّت الآية على أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا لعباً ولا باطلاً، وقد أوضح ذلك في آيات كثيرة، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطُلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص]، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل

عمران: ١٩١]، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿١٦٦﴾ [الأنبياء] ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٩]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١٥٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٦٦﴾ [المؤمنون]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣٦﴾ [النجم]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ ﴿٣٦﴾ أَلَوْ بِكَ نَفْطَةٌ مِنْ مَنِيَّ يُعْنَى ﴿٣٧﴾ [القيامة] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾.

ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أن الساعة آتية، وأكد ذلك بحرف التوكيد الذي هو «إن» وبلام الابتداء التي تزحلقها إن المكسورة عن المبتدأ إلى الخبر، وذلك يدل على أمرين: **أحدهما**: إتيان الساعة لا محالة. **وثانيهما**: أن إتيانها أنكره الكفار؛ لأن تعدد التوكيد يدل على إنكار الخبر، كما تقرر في فن المعاني.

وأوضح هذين الأمرين في آيات أخرى، فبين أن الساعة آتية لا محالة في مواضع كثيرة كقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ﴿٧﴾ [الحج] وقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٦٦﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا نَاهِلٌ كُفٌّ مُرْضِعَةٌ عَمَّا أَطْعَمَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ [الحج: ١، ٢]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلِمَ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْسِ الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿١٦٦﴾ [الروم]، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُفِثَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَعَثَةٌ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

وبيّن - جل وعلا - إنكار الكفار لها في مواضع أخرى، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧] وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ﴿٢٥﴾ [الدخان] والآيات بمثل ذلك كثيرة جداً.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أمر الله - جل وعلا - نبيه - عليه الصلاة والسلام - في هذه الآية الكريمة أن يصفح عمن أساء الصفح الجميل؛ أي بالحلم والإغضاء. وقال علي وابن عباس: الصفح الجميل: الرضا بغير عتاب. وأمره ﷺ يشمل حكمة الأمة؛ لأنه قدوتهم والمشرع لهم. وبيّن تعالى ذلك المعنى في مواضع أخرى، كقوله: ﴿فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨١﴾ [الزخرف: ٨٩]، ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَكَعُوا لِالْغَوِّ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلِكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ لَا تَبْنِيْ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ [القصص]، وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [البقرة: ١٠٩]. إلى غير ذلك من الآيات.

وقال بعض العلماء: هذا الأمر بالصفحة منسوخ بآيات السيف. وقيل: هو غير منسوخ، والمراد به حسن المخالفة، وهي المعاملة بحسن الخلق. قال الجوهري في (صاحبه): والخلق والخلق: السجية، يقال: خالص المؤمن، وخالق الفاجر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٨٦﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه الخلاق العليم، والخلاق العليم كلاهما صيغة مبالغة. والآية تشير إلى أنه لا يمكن أن يتصف الخلاق بكونه خلاقاً إلا وهو عليم بكل شيء، لا يخفى عليه شيء، إذ الجاهل بالشيء لا يمكنه أن يخلقه.

وأوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٨﴾ [يس]، وقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿٤﴾ [الملك]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ﴿٧٧﴾ [الطلاق]، وقوله تعالى مجيباً للكفار لما أنكروا البعث وقالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكُمْ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٢﴾ [ق]، مبيناً أن العالم بما تمزق في الأرض من أجسادهم قادر على إحيائهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ﴾ ﴿١﴾ [ق] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ ﴿٨٧﴾.

ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه أتى نبيه ﷺ سبعا من المثاني والقرآن العظيم، ولم يبين هنا المراد بذلك. وقد قدمنا في ترجمة هذا الكتاب المبارك أن الآية الكريمة إن كان لها بيان في كتاب الله غير واف بالمقصود، أننا نتمم ذلك البيان من السنة، فنبيّن الكتاب بالسنة من حيث إنها بيان للقرآن المبين باسم الفاعل، فإذا علمت ذلك فاعلم أن النبي ﷺ بين في الحديث الصحيح: أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم في هذه الآية الكريمة: هو فاتحة الكتاب، ففاتحة الكتاب مبينة للمراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم، وإنما بينت ذلك بإيضاح النبي ﷺ لذلك في الحديث الصحيح.

قال البخاري في صحيحه في تفسير هذه الآية الكريمة: حدثني محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن خبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد بن المعلى قال: مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي، فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيت فقال: «ما منعك أن تأتيني»؟ فقلت: كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤]» ثم قال: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد» فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرته فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢﴾ [الفاتحة]، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته، حدثنا

آدم، حدثنا ابن أبي ذئب، حدثنا سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أم القرآن هي السبع المثاني والقرآن العظيم».

فهذا نص صحيح من النبي ﷺ أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال أنها السبع الطوال غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه ﷺ، ومما يدل على عدم صحة ذلك القول: أن آية الحجر هذه مكية، وأن السبع الطوال ما أنزلت إلا بالمدينة. والعلم عند الله تعالى.

وقيل لها «مثاني»؛ لأنها تثنى قراءتها في الصلاة. وقيل لها «سبع»؛ لأنها سبع آيات. وقيل لها «القرآن العظيم»؛ لأنها هي أعظم سورة، كما ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح المذكور آنفاً.

وإنما عطف القرآن العظيم على «السبع المثاني» مع أن المراد بهما واحد وهو الفاتحة، لما علم في اللغة العربية: من أن الشيء الواحد إذا ذكر بصفتين مختلفتين جاز عطف إحداهما على الأخرى تنزيلاً لتغاير الصفات منزلة تغاير الذوات؛ ومنه قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [١] وَالَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ [الأعلى]، وقول الشاعر:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتيبة في المزدحم

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾.

لما بين تعالى أنه أتى النبي ﷺ السبع المثاني والقرآن العظيم، وذلك أكبر نصيب، وأعظم حظ عند الله تعالى، نهاه أن يمد عينيه إلى متاع الدنيا الذي متع به الكفار؛ لأن من أعطاه ربه - جل وعلا - النصيب الأكبر والحظ الأوفر، لا ينبغي له أن ينظر إلى النصيب الأحقر الأخس، ولا سيما إذا كان صاحبه إنما أعطيه لأجل الفتنة والاختبار، وأوضح هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله في (طه): ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ حَيْرٌ وَبَاقٍ﴾ [١٣٦] وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعِيقَابُ لِلْفَاقِئِ﴾ [طه] والمراد بالأزواج هنا: الأصناف من الذين متعهم الله بالدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾. الصحيح في معنى هذه الآية الكريمة: أن الله نهى نبيه ﷺ عن الحزن على الكفار إذا امتنعوا من قبول الإسلام، ويدل على ذلك كثرة ورود هذا المعنى في القرآن العظيم، كقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي صَبِيحٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]، وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨]، وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف]، وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] إلى غير ذلك من الآيات. والمعنى: قد بلغت ولست مسؤولاً عن شقاوتهم إذا امتنعوا من الإيمان، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، فلا تحزن عليهم إذا كانوا أشقياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. أمر الله - جل وعلا - نبيه في هذه الآية الكريمة بخفض جناحه للمؤمنين، وخفض الجناح كناية عن لين الجانب والتواضع، ومنه قول الشاعر:

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفعه أجدلا

وبيّن هذا المعنى في مواضع أخرى؛ كقوله في الشعراء: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَنْعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء]، وكقوله: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَفَقَطْنَا مِنْ حَولِكَ فَاعْتَفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] إلى غير ذلك من الآيات.

وفهم من دليل خطاب الآية الكريمة - أعني مفهوم مخالفتها - أن غير المؤمنين لا يخفض لهم الجناح، بل يعاملون بالشدّة والغلظة. وقد بيّن تعالى هذا المفهوم في مواضع أخرى؛ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وقوله: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] كما قدمناه في المائدة.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾. في المراد بالمقتسمين أقوال للعلماء معروفة، وكل واحد منها يشهد له قرآن، إلا أن في الآية الكريمة قرينة تضعف بعض تلك الأقوال:

الأول: أن المراد بالمقتسمين: الذين يحلفون على تكذيب الرسل ومخالفتهم، وعلى هذا القول فالإقسام افتعال من القسم بمعنى اليمين، وهو بمعنى التقاسم. ومن الآيات التي ترشد لهذا الوجه قوله تعالى عن قوم صالح: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل: ٤٩]. أي نقتلهم ليلاً، وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِهِمْ نَبِيًّا﴾ [النحل: ٣٨]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِمَّن قَبْلَ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]، وقوله: ﴿أَهْلُوا لَهُ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَأْتِيهِمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ [الأعراف: ٤٩] إلى غير ذلك من الآيات، فكأنهم كانوا لا يكذبون بشيء إلا أقسموا عليه؛ فسموا مقتسمين.

القول الثاني: أن المراد بالمقتسمين: اليهود والنصارى، وإنما وصفوا بأنهم مقتسمون لأنهم اقتسموا كتبهم فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها. ويدل على هذا القول قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠].

القول الثالث: أن المراد بالمقتسمين: جماعة من كفار مكة اقتسموا القرآن بأقوالهم الكاذبة، فقال بعضهم: هو شعر. وقال بعضهم: هو سحر. وقال بعضهم: كهانة، وقال بعضهم: أساطير الأولين. وقال بعضهم: اختلقه محمد ﷺ. وهذا القول تدل عليه الآيات الدالة على أنهم قالوا في القرآن تلك الأقوال المفتراة الكاذبة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا

هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٥﴾ [الحاقة]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ ﴿٩٤﴾ [المدثر]، وقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَخْلِقُ﴾ [ص: ٧]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [النحل]، وقوله: ﴿وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [الفرقان] إلى غير ذلك من الآيات.

والقرينة في الآية الكريمة تؤيد هذا القول الثالث ولا تنافي الثاني بخلاف الأول؛ لأن قوله ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْفُرْعَانَ عِضِينَ﴾ ﴿٩١﴾ أظهر في القول الثالث، لجعلهم له أعضاء متفرقة بحسب اختلاف أقوالهم الكاذبة، كقولهم: شعر، سحر، كهانة... إلخ.

وعلى أنهم أهل الكتاب - فالمراد بالقرآن كتبهم التي جزؤوها فأمنوا ببعضها وكفروا ببعضها، أو القرآن لأنهم آمنوا بما وافق هواهم منه وكفروا بغيره.

وقوله: ﴿عِضِينَ﴾ جمع عضة، وهي العضو من الشيء، أي جعلوه أعضاء متفرقة، واللام المحذوفة أصلها واو. قال بعض العلماء: اللام المحذوفة أصلها هاء، وعليه فأصل العضة عضة، والعضة: السحر؛ فعلى هذا القول - فالمعنى جعلوا القرآن سحراً؛ كقوله: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]؛ وقوله: ﴿قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

والعرب تسمي الساحر عاضهاً، والساحرة عاضهة، والسحر عضةً. ويقال: إن ذلك لغة قريش؛ ومنه قول الشاعر:

أعوذ بربي من النافثا ت في عقد العاضه المعضه
قوله تعالى: ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾. أي فاجهر به وأظهره؛ من قولهم: صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً، كقولك: صرح بها.

وهذه الآية الكريمة أمر الله فيها نبيه ﷺ بتبليغ ما أمر به علناً في غير خفاء ولا مواربة. وأوضح هذا المعنى في مواضع كثيرة، كقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾... الآية [المائدة: ٦٧].

وقد شهد له تعالى بأنه امتثل ذلك الأمر فبلغ على أكمل وجه في مواضع أخرى؛ كقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿فَوَلِّ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ ﴿٩٤﴾ [الذاريات] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾. في هذه الآية الكريمة قولان معروفان للعلماء: أحدهما: أن معنى ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي لا تبال بتكذيبهم واستهزائهم، ولا يصعب عليك ذلك؛ فالله حافظك منهم. والآية على هذا التأويل معناها ﴿فَأَصْدَعُ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، أي بلغ رسالة ربك، ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾، أي لا تبال بهم ولا تخشهم، وهذا المعنى كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

ثانيهما: وهو الظاهر في معنى الآية أنه كان في أول الأمر مأموراً بالإعراض عن المشركين، ثم نسخ ذلك بآيات السيف، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿أَنبِئْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنْظِرْ لَهُمْ مُنْتِظِرُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [السجدة]، وقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَوْ يُرِدُ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٩٨﴾﴾ [النجم]، وقوله: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِينَ وَالْمُنٰفِقِينَ وَدَعِ اذْنَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنْهِتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾﴾. بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه كفى نبيه ﷺ المستهزئين الذين كانوا يستهزئون وهم قوم من قريش. وذكر في مواضع أخر أن كفاه غيرهم؛ كقوله في أهل الكتاب: ﴿فَسَيَكْفِيكُمْ اللَّهُ ﴿١٣٧﴾﴾... الآية [البقرة: ١٣٧]، وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴿٣٦﴾﴾ [الزمر: ٣٦]، إلى غير ذلك من الآيات.

والمستهزئون المذكورون: هم الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والحارث بن قيس السهمي، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب.

والآفات التي كانت سبب هلاكهم مشهورة في التاريخ.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ أَنْكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ يَمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾﴾. ذكر - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه يعلم أن نبيه ﷺ يضيق صدره بما يقوله الكفار فيه من الطعن والتكذيب، والطعن في القرآن. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر، كقوله: ﴿قَدْ نَعَلْنَا لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَئِخٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦١﴾﴾ [الكهف] وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَئِخٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء] إلى غير ذلك من الآيات، وقد قدمنا شيئاً من ذلك في الأنعام.

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾. أمر - جل وعلا - نبيه ﷺ في هذه الآية بأمرين: أحدهما: قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، وثانيهما: قوله: ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾.

وقد كرر تعالى في كتابه الأمر بالشئين المذكورين في هذه الآية الكريمة، كقوله في الأول: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النصر]، وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴿٣٩﴾﴾، وقوله: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّكَ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾﴾ [غافر] والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وأصل التسبيح في اللغة: الإبعاد عن السوء. ومعناه في عرف الشرع: تنزيه الله - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله. ومعنى سبح: نزه ربك - جل وعلا - عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله. وقوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي في حال كونك متلبساً بحمد ربك، أي بالثناء عليه بجميع ما هو أهله من صفات الكمال والجلال؛ لأن لفظه ﴿بِحَمْدِ

رَبِّكَ ﴿ أَضِيْفَتْ إِلَى مَعْرِفَةِ فَتَعْمَ جَمِيعَ الْمُحَامِدِ مِنْ كُلِّ وَصْفِ كَمَالٍ وَجَلَالٍ ثَابِتٍ لِلَّهِ - جَل وَعَلَا - . فَتَسْتَعْرِقُ الْآيَةَ الْكَرِيمَةَ الشَّنَاءَ بِكُلِّ كَمَالٍ ؛ لِأَنَّ الْكَمَالَ يَكُونُ بِأَمْرَيْنِ : أَحَدَهُمَا : التَّخْلِيَّ عَنِ الرَّذَائِلِ ، وَالتَّنْزَهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ ، وَهَذَا مَعْنَى التَّسْبِيحِ ، وَالثَّانِي : التَّحْلِيَّ بِالْفَضَائِلِ وَالاتِّصَافَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَهَذَا مَعْنَى الْحَمْدِ ، فَتَمَّ الشَّنَاءُ بِكُلِّ كَمَالٍ ، وَلِأَجْلِ هَذَا الْمَعْنَى ثَبِتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ » ، وَكَقَوْلِهِ فِي الثَّانِي وَهُوَ السُّجُودُ : ﴿ كَلَّا لَا نُطِئُ لَكَ سَجْدًا وَآقْرَبُ ۗ ﴿١٦١﴾ [الغلقن] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَكَ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۗ ﴿١٦٢﴾ [الإنسان] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۗ [فصلت: ٣٧] ، وَيَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِطْلَاقُ التَّسْبِيحِ عَلَى الصَّلَاةِ .

تنبیه: اعلم أن ترتيبه - جل وعلا - الأمر بالتسبيح والسجود على ضيق صدره ﷺ بسبب ما يقولون له من سوء، دليل على أن الصلاة والتسبيح سبب لزوال ذلك المكروه، ولذا كان ﷺ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة، وقال تعالى: ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۗ ﴾ . . . الآية [البقرة: ٤٥] . ويؤيد هذا ما رواه الإمام أحمد، وأبو داود، والنسائي من حديث نعيم بن همار رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره» فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها .

قوله تعالى: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ ۗ ﴾ . أمر الله - جل وعلا - نبيه ﷺ بأن يعبد ربه، أي يتقرب له على وجه الذل والخضوع والمحبة بما أمر أن يتقرب له به من جميع الطاعات على الوجه المشروع، وجل القرآن في تحقيق هذا الأمر الذي هو حظ الإثبات من لا إله إلا الله، مع حظ النفي منها. وقد بين القرآن أن هذا لا ينفع إلا مع تحقيق الجزء الثاني من كلمة التوحيد، الذي هو حظ النفي منها. وهو خلع جميع المعبودات سوى الله تعالى في جميع أنواع العبادات، قال تعالى: ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۗ ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال ﴿ فَأَعْبُدْهُ وَأَصْطِرِّ لِعِبَادَتِهِ ۗ ﴾ [مریم: ٦٥]، وقال: ﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۗ ﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقال: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ۗ ﴾ [يوسف] والآيات في مثل ذلك كثيرة جداً .

قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ۗ ﴾ . قالت جماعة من أهل العلم، منهم سالم بن عبد الله بن عمر، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم: اليقين: الموت، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالُوا لَوْ نَكُنَّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۗ ﴾ [٢١] وَلَوْ نَكُنَّ نَطْمُ الْيَسْكِينِ ﴿٢٢﴾ وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٢٣﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٤﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٢٥﴾ [المدثر] وهو الموت. ويؤيد هذا ما أخرجه البخاري في صحيحه من حديث الزهري عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أم العلاء (امرأة من الأنصار) أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب!

فشهادتي عليك لقد أكرمك الله . فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله قد أكرمه؟»
فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله! فمن يكرمه الله؟! فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين،
وإني لأرجو له الخير..» الحديث . وهذا الحديث الصحيح يدل على أن اليقين الموت .
وقول من قال: إن المراد باليقين انكشاف الحقيقة، وتيقن الواقع لا ينافي ما ذكرنا؛
لأن الإنسان إذا جاءه الموت ظهرت له الحقيقة يقيناً، ولقد أجاد التهامي في قوله:

والعيش نوم والمنية يقظة والمرء بينهما خيال ساري
وقال صاحب (الدر المنثور): أخرج سعيد بن منصور، وابن المنذر، والحاكم في
التاريخ، وابن مردويه، والديلمي عن أبي مسلم الخولاني قال: قال رسول الله ﷺ: «ما
أوحى إلي أن أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ
وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا أَيُّكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾» .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما أوحى إلي أن
أجمع المال وأكون من التاجرين، ولكن أوحى إلي أن سبح ﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾
﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا أَيُّكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾» .

وأخرج ابن مردويه والديلمي عن أبي الدرداء رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:
«ما أوحى إلي أن أكون تاجراً ولا أجمع المال متكاثراً، ولكن أوحى إلي أن سبح
﴿يَحْمَدُ رَبَّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩٨) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَقًّا يَا أَيُّكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾» .

تنبيهان:

الأول: هذه الآية الكريمة تدل على أن الإنسان ما دام حياً وله عقل ثابت يميز
به، فالعبادة واجبة عليه بحسب طاقته، فإن لم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً، فإن
لم يستطع فعلى جنب. وهكذا قال تعالى عن نبيه عيسى - عليه وعلى نبينا الصلاة
والسلام -: ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١] وقال البخاري في
صحيحه: «باب إذا لم يطق قاعداً صلى على جنب» وقال عطاء: إن لم يقدر أن يتحول
إلى القبلة صلى حيث كان وجهه، حدثنا عبدان عن عبد الله، عن إبراهيم بن طهمان
قال: حدثني الحسين المكتب، عن بريدة، عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: كانت بي
بواسير، فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم
تستطع فعلى جنب»، اهد ونحو هذا معلوم؛ قال تعالى: ﴿فَأَنقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾
[التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقال ﷺ:
«إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم...» الحديث .

التنبيه الثاني: اعلم أن ما يفسر به هذه الآية الكريمة بعض الزنادقة الكفرة
المدعين للتصوف، من أن معنى اليقين المعرفة بالله - جل وعلا - وأن الآية تدل على
أن العبد إذا وصل من المعرفة بالله إلى تلك الدرجة المعبر عنها باليقين - أنه تسقط عنه
العبادات والتكاليف؛ لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة.

إن تفسير الآية بهذا كفر بالله وزندقة، وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين، وهذا النوع لا يسمى في الاصطلاح تأويلاً، بل يسمى لعباً كما قدمنا في سورة آل عمران، ومعلوم أن الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - هم وأصحابهم هم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع ذلك أكثر الناس عبادة لله - جل وعلا -، وأشدهم خوفاً منه وطمعاً في رحمته، وقد قال - جل وعلا -: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] والعلم عند الله تعالى.



بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النحل

قوله تعالى: ﴿ أَنْزَلَ أَمْرَ اللَّهِ ﴾. أي قرب وقت إتيان القيامة. وعبر بصيغة الماضي تنزيلاً لتحقق الوقوع منزلة الوقوع، واقترب القيامة المشار إليه هنا بينه - جل وعلا - في مواضع آخر، كقوله: ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء]، وقوله - جل وعلا -: ﴿ أَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ [القمر]، وقوله: ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقوله: ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧]، وقوله - جل وعلا -: ﴿ أَرَفَتِ الْأَرْضُ الْآرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النجم] إلى غير ذلك من الآيات.

والتعبير عن المستقبل بصيغة الماضي لتحقق وقوعه كثير في القرآن، كقوله: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَبَقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقوله: ﴿ نَادَى أَصْعَبَ الْجَنَّةِ أَصْعَبَ النَّارِ ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وقوله: ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [٦٩]، وقوله: ﴿ وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [٧٠] وسبق الَّذِينَ كَفَرُوا... ﴾ [الزمر: ٦٩ - ٧١].

فكل هذه الأفعال الماضية بمعنى الاستقبال، نزل تحقق وقوعها منزلة الوقوع.

قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾. نهى الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة عن استعجال ما وعد به من الهول والعذاب يوم القيامة، والاستعجال هو طلبهم أن يعجل لهم ما يوعدون به من العذاب يوم القيامة.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرة، كقوله - جل وعلا -: ﴿ وَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [٥٦]، ﴿ سَتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت]، وقوله: ﴿ سَتَعْجَلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ